« العاني » والمسرح العراقي الحديث

ثمة كلام كثير قد قيل وكتب حول الفنان يوسف العاني المحامي (١) وخاصة حول تمثيليته الاخيرة « فلوس الدوه » ـ ثمن الدواء ـ ومهما تشعبت الآراء واختلفت الملاحظات ، موضوعية وذاتية ، صورة ومضمونا ، حول هذه المسرحية التراجيدية للعاني ، فان هذه المسرحية تبقى ، بعد ذلك كله ـ وجها لاغنى عنه للمسرح العراقي الحديث .

لقد عرف العاني على انه ممثل كوميدي شعبي ممتاز ، ودعاه البعض « شابلن بغداد » (مجلة السينما العراقية ، وجريدة الاخبار العراقية) ، كما تطرف البعض الاخر ، من جهة ثانية ، فجرده وجرد تمثيليته ، التي نتحدث عنها ، هنا ، من اية جدة في الابداع والافكار والمعالجة الاجتماعية . والحقيقة تبقى عاجزة عن ان تتنفس وجودها ، ما دام البحث قاصرا على اسلوبية وكيفية عرض وتمثيل هذه التمثيلية ، والمقصود مضمونها وصورتها ، وما دام هناك الحاح ، متعمد ولا متعمد ، على فصلها عن موضوعها الذي تعالج ، ورسالتها التي تستهدف .

ولكي نتفهم العاني وفرقته « المسرح الحديث » حق التفهم ، فاننا ملزمون ان نرجع الى العشرينات من هذا القرن حين كان العراق مسرحا لماسمي ، تجاوزا ، «تمثيليات هزلية» هزيلة لا غاية لها الا التسلية والترفيه واضحاك الجمهور ولو كان ذلك على حساب الفن والاخلاق وكرامة الفكر ذاتها . والحق ان معهد الفنون الجميلة الذي خرج ولا زال يخرج مادة الممثلين والفنانين العراقيين الذين مارسوا او لم يمارسوا فعاليتهم الفنية المتميزة ، هو المسؤول عن تخريج العاني وزميله سامي عبد الحميد وهو الذي اسهم في بذر النهضة الفنية التمثيلية في ما تبع من الاعوام . ومن حيث ما يتصل بفناننا العاني، نجد انفسنا مضطرين الى الاعتراف انه افاد من زميله المرحوم الفنان شهاب القصب ـ شهيد الفن العراقي الواقعي ـ كثيرا . على ان القصب هذا عاش حيويته وروحه وتطور اسلوبا وموضوعا ومضمونا عبر انتاج وابداع زميله العاني ، بل ان العاني تخلص من بعض النقائص التي كان لا بد منها لانتاج مبكر لفنان ساخر مثل القصب . كما ان تعاون القصب والقاني قد بنى دعامة ما نسميه ،غير هيابين ، بالاتجاه الواقعي الانساني في فننا الحديث ..

وبغض النظر عن محاولات الفنانين الاخرين المجيدين امثال الاستاذ حقي الشبلي ـ رئيس فرع التمثيل في معهد الفنون الجميلة ـحالياـ والاساتذة جاسم العبودي رئيس فرقة « المسرح الحر » ـ ، وجعفر السعدي وبدري حسون فريد وعبد الكريم هادي ـ من « الفرقة الشعبية » ـ ، وابراهيم الهنداوي ، والحاج ناجي الراوي وغيرهم ، اقول بالرغم من محاولات هؤلاء في خلق اتجاه عراقي متميز في المسرح الحديث ، وبالرغم من توفيق بعضهم لدرجة تقل وتكثر باختلاف المسرحيات ذاتها وظروفها واهدافها الانية والبعيدة ، فان احدا منهم لم يستطع ان يزاحم العاني وفرقته « المسرح الحديث » في بناء هذا الاتجاه العراقي الخاص الذي نتحدث عنه. ونحن هنا لا نقلل من قيمة جهود هؤلاء ، ولكننا مضطرون ، لوجه الحقيقة والتاريخ ، ان نعترف انهم انما عاونوا او اكملوا او بذروا ـ سلفا ـ بذرة هذا الاتجاه ، وهذا هو كل ما استطاع تاريخ الفن العراقي ان يلتقط ـ في رأينا ـ منهم . على ان العاني ذاته لم يسلم ، كأي فنان مبدع ، من نقائص فنية جدية وبسيطة حاول ان يتغلب عليها واستطاع ، الى حد ، ذلك بعد كثير من التضحيات والعذابات

ان اهم ما يميز العاني عن زملائه ، فناني المسرح العراقي المعاصر ، هو كونه قد احاط ، نسبيا ، باسس ما يكون الفن الشعبي الناجح . فعدا عن ثقافة العاني الواسعة ، وعدا عن تكنيكه المسرحي الجيد ، فان له من وعيه ـ شأنه ، هنا ، شأن الفنان الواقعي التعبيري محمود صبري ـ ما يمده بمدد طيب من الابداع الاصيل ، مستفيدا من خبرة ما توصل اليه فنانو الغرب القدامى والمحدثون . ومن ناحية اخرى ، فان جميع ما يتطلبه الممثل الناجح من صفات قد توفر ، لحسن الحظ ، لدى العاني ، فالواقعية في التعبير ، والبساطة ، والايمان والاصالة مع المثابرة والديناميكية والاستغراق المخلص في الدور بعد تشربه وهضمه ، والنزعة الانسانية المقترنة بالغنائية المشرقة والقريبة من قلوب الجماهير ، كل هذا جعل له مكانته اللائقة به في عقول وقلوب المثقفين والبسطاء ، على حد سواء . والعاني ، مؤلفا مسرحيا ، او مخرجا ، او ممثلا ، او ناقدا مسرحيا ، او ناقدا سينمائيا ، او مؤرخا فنيا ، او متذوقا ادبيا (١) لا يخرج عن الواقع الحي المتجدد الا ليربطه بمصلحة الانسان العامل المنتج ، والا ليبني ، عن تعقل ودراسة هادفة ، كيان ما يجب ان يكون ، لمصلحة انساننا المعذب المجاهد نحوه غده الافضل . الحق ان العني هو ابن مرحلته البار قدر ما هو رمز الواقعية الحديثة في فننا ...

على ان ما يعطي للعاني اهمية استثنائية هو كونه يستفيد ، استفادة الانسان الفنان ، من اخطائه واخطاء العاملين معه في المسرح . ان ذكاءه هنا ، يلعب نفس الدور الذي لعبه ذكاء زميله ، على بعد المسافة واختلاف الظروف والغايات النسبي ، الفنان الواقعي الساخر نجيب الريحاني . ان الجرأة التي تميز بها العاني وتفرد ، متعاونا مع زميليه الفنانين الشابين ابراهيم جلال وسامي عبد الحميد ، هي التي قومت ، لحد كبير ، من مرامي ومضامين بل وحتى تكنيك مسرحياته الناجحة . لقد استوعب العاني واقعه ومضغه ، مضغ الانسان الفنان ، فجاء هو وفرقته ، مثابرا الى ادراك ما يجب ان يفيد منه الانسان العربي والعراقي . فعلى

(١) يوسف العاني : فنان عراقي شاب تخرج من معهد الفنون الجميلة منذ سنوات ، كما تخرج من كلية الحقوق العراقية ، الا انه يمارس المحاماة. وقد قيل في حقه « انه ممثل محترف ومحامي هاو » ! وقد قدم الى الجمهور مجموعة مسرحياته ، باللهجة الدارجة ، تحت عنوان « راس الشليلة » وتميز بالاسلوب الكوميدي الساخر ، ومن هنا شبهه البعض تجاوزا ، بشابلن . على ان نشاطه الفني تجاوز المسرح الى السينما حيث شارك في تمثيل فلم « سعيد افندي » . ويشكل هو وزميله سامي عبد الحميد محور فرقته « المسرح الحديث » .

(١) يقوم العاني ، حاليا ، بتقديم النقد السينمائي لجريدة « الاخبار » العراقية ثلاث مرات في الاسبوع كما ويتبتع ، دارسا ، تمثيليات الفرق الاخرى ، ويقومها ، نقدا هادفا . وهو بالاضافة الى هذا وذاك يسهم في اخراج وتمثيل كافة مسرحيات الفرقة التي يشغل سكرتيريتها وهي « المسرح الحديث »

سبيل المثال ، توضح للعاني ان اللهجة الدارجة ، تتحمل كل فلسفته وتوجيهاته البناءة ، كما وانها تزخر بالايماض والتصريح والانشـــاء السيكلوجي والميتولوجي ، اضافة الى انها اقرب الى عقول الجماهـــير وافهامها ، وهكذا جاء العاني يضع سائر تمثيلياته ، باصرارا ومثابـرة عجيبة ، وبشحنة تقدمية واقعية ، باللهجة الدارجة (١) ومن هنا جاءت سلامة التعبير لديه ، ومن هنا جاءت ، ايضا ، دعاوته الناجحة وايحاءاته المجيدة . على ان الانصاف يقتضينا ان نقول ان السلامة لم تقتصر على الشكل لديه ، بل تناولت المواضيع والمضامين ايضا .

فان استعرضنا تمثيلياته ـ التي جمعها فى كتاب « راس الشليلة » ـ وجدناها تنضح بالواقعية والنزعة الانسانية . ف « تؤمر بيك » ! و « ماكو يشغل ! » و « حبه سوده » ! ، على سبيل المثال ، تعالج ، اجمالا ، التقاليد المجتمعيةالمظلمة ، وتفتح الطريق ، بلا تهريج ولا دعاوة ولا ارشاد او تلقين ، نحو اخلاق وتقاليد جديدة ، هي تقاليد النور والعمل والحب والسلام .

وبالمثل ، فان تمثيلياته الجديدة « ايراد ومصرف » ، و « لوبسراجين لو بالظلمة» ، و « فلوس الدوه » ، و « ست دراهم » ، تستمر ، متعاونة مع زميلاتها السالفات، فى بناء المسرحية العراقية الحديثة ـ ولكن باللهجة العامية ـ المكرسة ، عن وعي ، لمصلحة انساننا الحديث .

وبالرغم من ان كثيرا من النقد قد وجه للعاني حول اصراره العجيـب على استخدام اللهجة العامية العراقية ، فانه لا يتزحزح قيـد شـعرة عن موقفه هذا . والحق انه مثل تمثيلية لتشيخوف ـ هي « اغنية التم »ـ باللهجة الفصحى ، الا انه لم ينجح فيها نجاحه فى تمثيلياته التي وضعها هو ، او شارك فيها مع المرحوم القصب او زميله سامي عبد الحميد . ولعل لا شعوره وكيانه السيكلوجي قد بني ، مصمما ، للافادة من اللهجة العامية ـ التي يفهمها الجميع ، هنا . على اننا نرى اكثر من ذلك ، فالحق، ونحن هنا نعيد ما سبـق ان قلناه ، ان اللهجة العامية مطواعة ، لديه لتذليل كثير من العقبات التي يجدها فى الفصحى ، هذا عدا عن شعبيتها وسهولتها ، وصلتها السيكلوجية الشعورية واللاشعورية بالفرد العـراقي ـ ممثلا فى انسان بغداد الخيِّر، الساخر ، العامل ، الدؤوب ، والمتفائل المؤمن بالحياة رغم كل شيء ...

ومهما يكن فان استمراره على تطويع العامية واستغلالها فى مسرحياته الشعبية الرفيعة الموضوع والمضمون ، لن يجنبـه ، فى رأينا ، مزالـق خطرة . فمسرحياته ، بالشكل الذي وضعت به ، باللهجة العراقيـة الدارجة ، لا يمكن ان تجد الاستجابة الجماعية فى سائر مواطن الانسـان العربي ، التي لا تكاد تفهم العامية العراقية . واذكر ، على سبيل المثال وليس الحصر ، ان اخوانا من الجزائر ومراكش ـ وهم طلبة يدرسون فى معاهد بغداد الجامعية ـ قد حضروا احدى مسرحيات العاني الجديدة ـ هي بالتحديد « فلوس الدوه » ـ فلم يستيطعوا فهمها الا بالكاد ، وبعد ان ترجماننا لهم من العامية الى الفصحى .. تصور عربيا يترجم لعربي مسرحية قيلت بالعربية ؟!

ومن ناحية اخرى فان نقائص جدية اخرى تشوب مسرحيات العـاني ، نذكر منها قلة الاهتمام بالديكور والشكل الذي تقدم به المسرحية الـى الجمهور . ومع ان العاني يستفيد من الرمز كثيرا ، ويلح فى استغـلال

(١) جمـع العاني بعض تمثيلياته فى كتـــاب بعنوان « راس الشليلة » ، قدم له الدكتور صلاح خالص . وله من تمثيلياته الجديدة « ايراد ومصرف » ، « فلوس الدوه » وقد وضعها ، هذا العام ، باللهجة الدارجة ايضا .

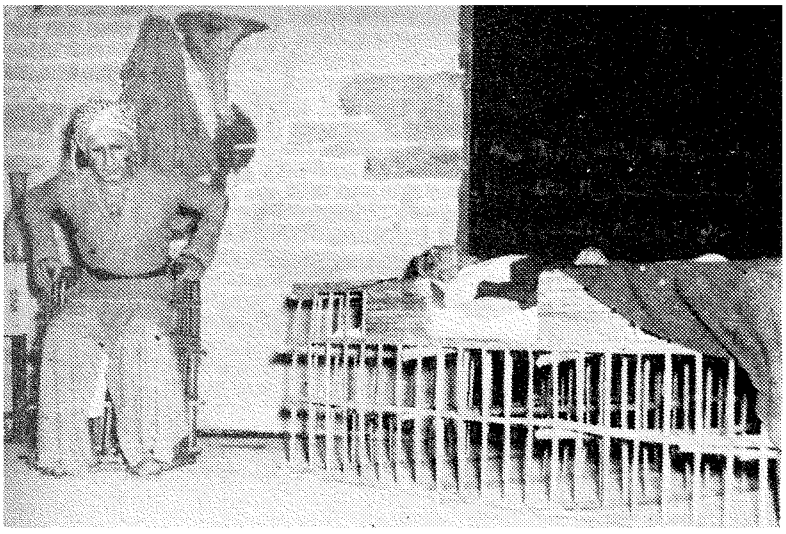

العاني في تمثيليته « فلوس الدوه »

التلغيز الى ابعد حد ، الا انه لن يستطيع ، بحال من الاحوال ، ان يتخلص من اهمية الشكل والجو المسرحي فى تمثيلية المفروض فيها انهـا تقدم لغاية انشائية، واهداف خيرة بناءة. صحيح ان الظروف لا تعاونه فى تذليل هذه العقبات ، فهو يمثل على مسارح جامعية هزيلة الذخـيرة و « الاثاث » المسرحي ، او يضطر الى التمثيل فى قاعة صغيرة ـ هـي قاعة الملك فيصل الثاني ـ بعد ان يضايق كثيرا فى الوقت اللازم لحضانة ومخاض تمرينات ناجحة للمسرحية الجيدة . وصحيح ان بعض مسرحياته البسيطة لا تتطلب الديكور الفخم ـ الذي استغله البعض ، ففشل فى مسرحيات هزيلة المضمون والموضوع ، الا ان ذلك كله لا يتيح لنا ان ننبـذ قيمة المعاونة العضوية والوظيفية للشكل والمضمون فى ابداع مسرحية رفيعة الموضوع ، انسانية الرسالة ، واقعية المعالجة .

✶

قدمنا كل هذه السطور لنخلص الى دراستنا لمسرحية « فلوس الدوه » ـ احدث مسرحية للعاني ـ مكتوبة ، وممثلة . لقد اتيح لي ان اشـهد هذه المسرحية مرتين ـ فقد قدمت على مسرح الكلية الطبية ودار المعلمين العالية ـ كما وتأملتها ، مدققا ، منشورة فى مجلة « الفنون » (١) العراقية فاستطعت ان استنتج ان هذه المسرحية ليست هبوطا لانتاج العاني المسرحي ، كما وليست ، على التحديد ، نكسة فنية فى الموضوع والمضمون لمشكلات العاني المسرحية ـ كما ادعى البعض مخطئا .

ان خلاصة قصة هذه المسرحية ـ التي اعترف انها جاءت غريبة عن مسرحيـات العـاني السابقـة التي امتـازت بالكوميديـة الساخرة ـ ان ابا كادحا يعاني تجربتين مؤلمتين تتمثلان فى احتضار ابنه المريض جراء انعدام الدواء بسبب عدم توفر ثمنه ، وفى حبس ابنـه الاخر ـ وهو عامل فى فندق ـ نتيجة سرقته « استحقاقه » غير المدفوع من خزانة الفندق الذي يعمل فيه ، ليستطيع بذلك شراء الدواء لاخيـه المحتضر . تبتديء المسرحية بالمشهد الذي يبرز دكتورا يفحص « ابراهيم » ـ الابن المريض ، ليوصي بعدئذ بوصفة ـ غالية الكلفة بالنسبة لامكانات العائلة المادية ، وتسير المسرحية فى بناء رشيق ينضح بالدراماتيكيـة ، فيسأل ابراهيم مثلا عن اجوره المتخلفة فى المعمل الذي كان يشتغل لديـه

(١) هذه المجلة هي المجلة الفنية العراقيـة الوحيـدة التـي تستأهل الاحترام ، وقد تطورت عن مجلة « السينما » التي سبق ان اشرنا اليهـا وتساهم اقلام طيبة مثقفة فى التحرير فيها ، كما وانهـا تتطور بخطـى جريئة .

قبل مرضه : « زين يا به ... اشسويتوا على الاجور مالتي الاطلبهـــا. كلتلكم قيموا دعوى بيها » ، ثم ينتقل ابراهيم ذاته الى لفتة ســاخــرة « شكوفوق ، اذا انت ليمي لو مويمي . ما دام دوه ماكو شكوفوق يابه . انت شتكدر اتسويلي اذا دوه ماكو .؟!»

وتظل الحوادث ناضحة بالواقعية والصدق حتى نفهم ان الابن الثاني قد طرد من الفندق الذي يعمل فيه بسبب احتجاجه ، كانسان ، عـــلى الضجة التي سببتها راقصة مستهترة ، والتي آذت انسانا اخر يشكـو المرض ــ يقيم فى الاوتيل ، قبل غرفة الراقصة ــ . ثم ان هذا الابن قد طرد ، دون ان تدفع له اجوره لاخر شهر لعمله .. ويخرج الاب بعـــد لقاء ابنه ، هكذا ، ليستدين من البقال الذي يعرفه مبلغ شراء الدواء . وهنا ، يقدم العاني منولوغا داخليا ، نلمسه عبر تفكيرات وتحسسات الابن المطرود من الفندق . انه يستذكر كيف طرد ، ويستذكر ايضا ، واقعه الاسود .. اخاه الطريح ، وثمن الدواء ، واجوره التي لم تدفـع له ، فيصمم على امر .. هنا تتجلى مقدرة العاني التكنيكية باجلى مظاهرها ، وهنا نحصل على اساس المسرحية الرفيعة ــ البناء السيكلوجي مع التقنية الفنية . وهكذا يخرج « علي » ــ الابن الثاني ــ فيسرق ما يســاوي اجوره غير المدفوعة ، بينما ينكب الاب الفاشل فى استدانة ثمن الدواء من البقال بحضور صاحب الدار الذي جاء يطالب « بقسط الاجار » . ويناضل الاب للتخلص منه ، بكل الطرق ، فلا يفلح الا بعد لاي ــ هنا نلمس حوارا واقعيا منطقيا جدا بين مستغل ومستغل ــ (الاب : دخليني بالاول اعمر هذا المسطول يمي ...) « الملاك : عجايب .. البيت بيتي .. ابنك خومو ابني يا هو مالتي يرحمه الابوك ! » . ويأتي علي بـــالدواء اخيرا بعد ان يعاني ابراهيم ــ اخوه المريض ــ الاحتضار ، فيدور حوار تراجيدي مؤلم (علي صارخا) ابراهيم مات ؟ « الاب : لا .. ابراهيم .. ما مات .. بس الحوش اتفلش ..! » . وآنذاك ــ فى هذه الاونة الحرجة الدقيقة ــ يأتي صاحب الاوتيل برفقة دركي ليقود علي ــ ســـارق « استحقاقه » ــ الى الاعتقال ، وتختتم المسرحية بصراخ الاب الهستيري: « الاب : ينهض من مكانه : انت ما الك استحقاق : الاستحقاق بس الابو جورج،روح،روح خلي يصير العزه مالته عزاوين، انت مالك استحقاق !!» وهكذا يسدل الستار على خاتمة قوية سخية الايحاء ..

ومن هذا الاستعراض الموجز لاهم ما احتواه مضمون هذه المسرحية ، يتبين لنا ان المسرحية كانت ناجحة من حيـث عرضهـا الواقـع ، لا بالفوتوغرافية الخرساء السوداء ، بل بتطعيم هذا الواقع بالسخريـــة والانشائية والبنائية الهادفة . الحق ان هذه المسرحية قد ابكت كثيرا من كلا الجنسين، الا انها لا يمكن ان تفقد، بذلك، قيمتها الفنية والموضوعية فموضوعها اسمى من ان ننبذه ، ومضمونها كان واقعيا لدرجة انه لم يفقد اصالته رغم التكرار وهزال الديكور والشكل . اما التمثيل فقد كان رائعا جدا ــ وخاصة يوسف العاني ذاته فى دور الاب ، والممثل الذي ادى دور صاحب الدار .

ان العاني استطاع بتراجيديته هذه ان يبرهن على انـه ليس ممثلا كوميديا ناجحا فحسب ، بل انه ممثل واقعي انسان ، استطاع ان يستغل التراجيديا لمصلحة الحقيقة و« الاخرين » . وبالرغم من نقائصه الجدية التي بحثناها ، سالفا ، فانه استطاع هنا ان يؤدي دور الانسان الفنان فى « تطوير المجتمع الذي يعيش فيه » « لان الفنان ليس مجرد وسيلة لالهاء الناس »على حد قوله هُو .

بغداد — **جليل كمال الدين**

هل اقتنيت نسختك من كتاب :

الأغاني

لأبـي الفرج الاصبهاني

تمت اعادة طبعه كاملا (٢١ جزءا) وهو معروض للبيع مجلدا تجليدا انيقا

تراث ادبي خالد يؤرخ مختلف الحركات الادبية والتيارات الشعرية ، ويعطي صورة شاملة شيقة للادب العربي

مكتبة فى كتاب ، وسفر جامع صادق الرواية رائعها كتاب كل دارس ومطالع واديب

اصدرته : مكتبة الحياة (لصاحبهايحي الخليل)

للمراسلة : دار مكتبة الحياة ــ بيروت لبنان

ص.ب ١٣٩٠

ثمن المجموعة كاملة ١١٠ ليرات تضاف اليها اجرة الشحن